الرحالة الألماني رولفس وليبيا

عماد الدين غانم

المقدمة :

ان الرحالين الاوربيين الذين قدموا الى ليبيا ووصفوا ارضها وشعبها عديدون . وان الاهتمام بمؤلفاتهم ودراستها عند التاريخ لليبيا فى الفترة الواقعة بين القرن السادس عشر ونهاية القرن التاسع عشر الميلادى امر لاغنى عنه للباحث المختص . وعندما نتعرض الان الى غرهارد رولفس (١) فاننا نختار نموذجا من الرحالين الذين امنوا بفكرة تفوق الاوربيين والمدنية الغربية على الشعوب والمجتمعات الافريقية والاسيوية ومن انصار خرافة ما يسمى «بعبىء الانسان الابيض» وهو من الرحاله ، الذين لم يكتفوا بسرد مشاهداتهم وذكر الحوادث التى تعرضوا لها ، بل نموذج الرحالة الباحث الذى حاول دائما ان يقوم ببعض الابحاث فى نواح مختلفة نجدها فى كتبه وتقاريره ومقالاته العديدة .

وقد قضى اخر حياته فى قرية رونغسدورف بالقرب من بون عاصمة المانيا الاتحادية ، وتوفى فيها عام ١٨٩٦ ودفن فى مسقط راسه فى فيغزاك وكان من اهم المختصين بالشؤون الافريقية وهذا ماتشير اليه مراسلاته الواسعة التى بقيت متصلة حتى اخر حياته . وهى محفوظة الان فى اهم المكتبات الالمانية مثل مكتبة الدولة فى برلين ومكتبة الدولة فى ميونخ ودار نشر بيترمان فى غوتا بالمانيا الديمقراطية . وقد صور مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبى اهمها وهى متوفرة لدى قسم الوثائق والمخطوطات .

اما بالنسبة الى الرحلات التى قام بها رولفس فيجدها القارئ فى يثنايا هذا البحث المترجم .

ان المقال الذى نعربه الان يبين راى رولفس فى اهمية ليبيا بالنسبة الى الرحالين الذين ينطلقون الى الكشف عن المناطق المجهولة من افريقيا ، كما يبين وضع الدراسات حول المنطقة . ولذلك نراه يختار عنوانا لبحثه - الذى قدمه الى مؤتمر حول افريقيا انعقد فى بروكسل عام ١٨٧٣ - باسم «اهمية طرابلس بذاتها وباعتبارها منطلقا الى الرحلات الاستكشافية الى افريقيا» (٢) وقد نشر هذا البحث عام ١٨٧٧ فى قايمار على شكل كتيب .

وعلى الرغم من اهمية مؤلفات رولفس نلاحظ انها لم تلق العناية التى لقيتها مؤلفات الرحالة الالمانى هاينريش بارت (Heinrich Barth) وغوستاف ناختيغال (Gustav Nachtigal) فقد ترجمت مؤلفاتهما الرئيسية الى الانجليزية وبذلك اتيح لعدد كبير من المهتمين فرصة الاطلاع على دراساتهم ، واننا نامل ان تكون ترجمة هذا الكتيب بداية لترجمة اعمال رولفس المتعلقة بليبيا .

وقبل ان نقدم نص بحث رولفس نود ان نشير الى ان الاراء التى يتبناها فى مطلع بحثه انما تنبع من روح الاستعمار الاوربى الذى كان يعيش وقتئذ عصره الذهبى . وتعتبر افكاره حول مهمة الامم المتحضرة فى نقل المدنية الى الشعوب احدى اسس النظرية الكلاسيكية الاستعمارية . ومن المعلوم ان ما قدمه الرحالون الاوربيون من معلومات حول المناطق التى زاروها انما استعملت حين وضع السياسة الاستعمارية (٣) ، وما كتبه رولفس يعد احد نماذجها .

نص البحث :

ان انعقاد هذا المؤتمر تحت رعاية ملك البلجيك وفى وقت تتزاحم فيه الاحداث لمؤشر لاحدى الميزات الرائعة فى هذا القرن الذى ستقول عنه الاجيال القادمة انه على الرغم من التحولات الجذرية والحروب الكبيرة التى لم تعرف من ذى قبل ،

وعلى الرغم من ان المرء كان يعتقد انه بواسطة هذه الحروب سيصل الى التوازن السياسى ، لم تدخر الامم المتمدنه اى جهد فى سبيل الاهتمام بمصير الفرد وايصال الحضارة الى الشعوب ، والاخذ بيدها من اجل الوصول الى وجود يليق بالانسان وذلك عن طريق الحرية والتنوير .

وانه لمن واجب الانسان ان يعمل على تحسين وضع ابناء جنسه ، وان هدف الملوك والحكومات ان تمدن شعوبا باجمعها ولئن كان الامر يتعلق بقارة باكملها لم تتطرق الى معظمها الابحاث ، حيث يسود الظلام الدائم ، فان افضل طريق الى نشر المدنية ان يقوم عمل جماعى وان ينقلب الامر الى مسؤولية دولية .

وهذا ما وعاه ملك البلجيك ولبت نداءه الامم العظمى . وانما نحن بصدده الان هو استكشاف مناطق من افريقيا لانعرف عنها شيئا حتى الان ، ودراسة هذه المناطق ليتحقق تمدين الزنوج والقضاء على تجارة العبيد . وايا كانت الاراء حول مقدرة الزنوج على المدنية ، وان كان راى البعض فى عدم جدوى محاولات تمدين هؤلاء الزنوج ، فان واجب الامم المتحضرة الاتدع امرادون محاولة لكى يشترك اخواننا الزنوج فى نعمة التمدن ، التى ننعم بها . اجل اننا لانشك ابدا فى ان الشعوب البدائية تنقرض بسرعة من خلال تماسها مع الانسان المتمدن ، الا ان الواجب ان نعمل كل شئ من اجل حمل الحضارة والنظام الى هذه القبائل التعيسة . ومما يحب الانتباه اليه انه لم يتخذ بعد قرار يتعلق بهذه المشكلة بعينها ، فلا نستطيع ان ننطلق من اوضاع السكان الأصليين لأمريكا واستراليا لنتعرف على سكان أواسط افريقيا . وحسب المعلومات المتوفرة حتى الآن – يبدو ان هؤلاء وحدهم هم القادرون على تحمل الظروف المناخية الخطيرة المسيطرة هناك . ان من الخطأ اغفال الحقيقة القائلة ان معظم الرحالين الذين قصدوا افريقيا يعتقدون فى مقدرة الزنوج على التمدن على حين يرفض علماء شهيرون فى الانثروبولوجيا مثل هذا

الراى . وانما يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار ان الرحالين قد راقبوا الزنوج فى وطنهم . وفى «عفويتهم» وفى أوضاعهم وسط الطبيعة ، وفى ظروفهم الحقيقية ، على حين يعرفهم الانثروبولوجيون من خلال الكتابات او من خلال رؤيتهم عبيدا ، اى فى ظل ظروف شاذة ليست ابدا بظروفهم الطبيعية .

ان مؤتمر بروكسل يركز بشكل خاص على جزء معين من افريقيا يقع بين درجتى عرض ١٠ شمالا و ١٠ جنوبا ، ودرحتى طول ٣٠ شرقا و ٥٠ غربا . انها منطقة شاسعة غير انها تتميز عن المناطق الأخرى فى درحة جهلنا وهى المنطقة التى تتيح الفرصة - والى ابعد الحدود - لجهود التمدين ، ففيها شعوب كثيرة ويمكن القول انها مكتظة بالسكان .

وبالا ضافة الى هذا فان مؤتمر بروكسل يهتم ايضا بمناطق بلاد السودان الشمالية وبخاصة باجرمى ووداى باعتبارهما بلدانا تصلح للانطلاق نحو الاستكشاف . واريد ان أضيف الى هاتين المنطقتين مناطق اخرى مثل أداماوا وكروفا ومناطق نفرا وكذلك منطقة باوتشى الواقعة الى شمالها . وبغض النظر عن نفرا التى يتمكن الوصول اليها من لوكويا الواقعة على نهر النيحر فان المنفذ الى المناطق المذكورة أعلاه هو الذى ينطلق من ليبيا (٤) ، ولا أنكر فى هذا انه من السهل السفر من مصر الى وداى لو ان الخديوى لم يحتل الفور بالقوة ، اذ ان هذا اثار غضبنا فى وداى ، وشكا فى كل شئ ، وموقفا عدائيا ضد كل من يأتى من جهة النيل . واذا ما تركنا مصر جانبا فأن ليبيا تصبح الباب الوحيد لشمال افريقيا ووسطها . ان المغرب لايمكن ان يؤخذ بعين الاعتبار بسبب روح التعصب السائدة بين السكان هناك والحقد المتأجج ضد كل أوربى وكذلك الأمر لدى قبائل جنوب الجزائر مثلا فى توات ومناطق الطوارق حيث يوجد هناك حاجز دون نشر المدنية الأوربية لايمكن تجاوزه . ومثل هذا يمكن ان يقال بصورة تقريبية عن تونس اذ ان الحكومة

الضعيفة هناك لم تتمكن من فرض سيطرتها بل عجزت عن فرض هذه السيطرة حتى على العاصمة ، لقد قتل خلال فصل الشتاء الماضى رسامون اوربيون بأبشع طريقة ، حينما كانوا يرسمون جامعا قتلتهم عامة الشعب وكاد الأمر ان يصل الى وقوع حوادث اكثر بشاعة لولا تدخل القناصل الأوربيين . اما الأوضاع فى ليبيا فهى مغايرة تماما.

فاذا ما نظر المرء الى خارطة افريقيا فانه يلاحظ مباشرة ان الشاطئ الشمالى للجزائر وتونس يصل حتى ٣٧ درجة عرض شمالا على حين يصل هذا فى طرابلس ٣١ درجة عرض شمالا . وان حدود الجزائر الجنوبية فى أقصاها حوالى ٣٠ درجة عرض ، هذا اذا ما اعتبرت منطقة غوليه (٥) تابعة للحكومة الفرنسية مع ان سكانها لايعترفون بتبعيتهم لحكومة الجزائر ، بينما تصل الحدود الجنوبية الفرنسية لفزان الى منطقة انحراف السراف الشرطان ، وهكذا فان الباحث الذى يأتى من طرابلس يصل الى هذه المنطقة دون صعوبات تذكر ان هذه لحقيقة يحب ان نعطيها قدرها .

وان الميزة الثانية التى تقدمها ليبيا هى الأمان المستتب فى جميع ارجائها . ولئن وقعت خلال الفترة الأخيرة حوادث قتل بعض الرحالين الأوربيين فى الأراضى الليبية كالكسندريناتينه ودورنو دوبيرى ، فلم يكن ذلك من قبل رعايا الحكومة العثمانية ، وفى هذه البلاد الواسعة الانتشار وفى هذه الصحراء المترامية الاطراف التى تتخللها بعض المناطق الخصبة المتباعدة عن بعضها البعض ، فانه ليس من المعقول ان نجعل الحكومة مسؤولة عن حوادث القتل الافرادية ، وبخاصة ان هذه الأعمال لم تقترف من رعاياها .

وعلينا ان نقول عن الحكومة العثمانية انها استطاعت ان توجد أمنا فى منطقتها فى حين لم تحقق فرنسا مثل هذا الأمن فى الجزائر على الرغم من انها احتلتها قبل فترة من احتلال الباب العالى لليبيا (٦) .

ان حدود ليبيا واضحة فى الشمال فقط ، اذ يقع البحر الابيض المتوسط شمالها اما فى الغرب فيتخذ بعض الجغرافيين انطلاقا من رأس البيين حدا والبعض يجعلونه ينطلق من ود سقرو ، ويستمر هذا الاتجاه حتى غدامس ، هذا المدينة الصحراوية ، الى تقع مع منطقتها ضمن حدود ليبيا ، ثم يستمر هذا الاتجاه جنوبا نحو غات وبهذا نحصل على الحدود الغربية ، وقد ثبتت الحدود الجنوبية عبر غات تد جرّى فى فزان ومن هذه يتجه الخط نحو واحتى جالو واوجلة وفى الشرق يعتبر خليخ ملهر نقطة الحدود بين مصر والمنطقة العثمانية وهو خط مستقيم . وليس من المؤكد فيما اذا كانت بيرطرفاية مصريــة ام ليبية ، ومــن الناحيــة الطبوغرافية نجد انها تابعة لواحة سيوة حيث الاله جوبتير امون ، اى ان المنطقة تأبعة لمصر . هذه المنطقة الشاسعة والتى تبلغ مساحتها ضعفى مساحة المانيا مازالت تقريبا غير معروفة بعد ولم تتناولها الابحاث . والحدود التى ذكرنا انما هى حدود تقريبية ، ويمكن ان تمتد ايضا فى الجهات الثلاثة ، فلم يأخذ موضوع تثبيت الحدود حتى الآن اى دور ، ولم تجر مفاوضات بشأنه ، وربما يبقى الوضع هكذا وقتا طويلا حتى يبت فى أمره .

لقد سلفت الاشارة الى ان ليبيا كانت من اهم نقاط انطلاق الرحلات الاستكشافية وستبقى كذلك ولهذا يجدر ان تكون موضوعا للدراسات ، ولمزيد من الايضاح نورد الحقائق التالية :

بدأ هورنمان (Hornemann) ا ابو الرحالين الالمان الى افريقيا ، رحلته ١٧٩٩ من القاهرة على نفقة الجمعية الافريقية فى لندن وبمساعدة نابليون بونابرت ، غير انه ــ حرصا منه على نجاح رحلته ــ عاد ادراجه من مرزق الى طرابلس لينطلق منها الى السودان حيث لقى حتفه هناك . ومن المحتمل ان يكون قد قتل فى تمبكتو ويكون بذلك قد شارك الكثيرين من الرحالين فى هذا المصير المؤسف .

وان الرحلة الاستكشافية التى قام بها ليون (Lyon) وريتشيه (Ritchie) الى فزان خلال عامى ١٨١٨ــ١٨٢٠ من طرابلس ، قد لاقت صدى كبيرا ، اذ انها قدمت تصورات أصيلة قائمة على المشاهدات والانطباعات الواقعية عن سلطنة فزان ، التى كانت فى بداية هذا القرن على درجة من القوة استطاعت معها ان تقود حربا ضد السلطة فى طرابلس .

وفى ١٨٢١ حقق دنهام (Denham) بالاشتراك مع أودنى (Oudney) وكلابرتون (Clapperton) تلك الرحلة الاستكشافية الشهيرة الى برنوح وماندارا وسوكوتو وقد انطلقوا فى هذه الرحلة الذائعة الصيت من طرابلس ، وفى اثر ذلك وصلت المعلومات عن الحكومات فى مناطق السودان التى لم يكن يعرف عنها حتى تاريخه سوى الاسم ، وقد عاد أفراد هذه الرحلة الى وطنهم عن طريق طرابلس .

وفى سنة ١٨٢١ قام الأخوان ف . و . و ك . و بيتشى (Beechy) انطلاقا من طرابلس برحلة استطلاعية على طول شاطئ سرت ، وفى اثر هذه الرحلة توصلنا الى صورة حقيقية لهذا الشاطئ وللساحل الصخرى فى برقة .

لقد بدأ الرائد لينغ (Laing) عام ١٨٢٥ من طرابلس رحلته الى تمبكتو ، الا انه للاسف قد قتل فى طريق العودة .

ان ريتشاردسون (Richardson) كان اول اوربى انطلق من طرابلس الى غدامس ومنها نحو غات وقد قاد عام ١٨٥٠ رحلة بارث (Barth) الاستكشافية التى انطلقت من طرابلس . وفى الحقيقة فان بارث قد اطلع فى البداية على شاطئ الشمال الافريقى بأكمله ، وقد انطلق فى رحلته المظفرة مع ريتشاردسون من طرابلس عام ١٨٥٠ ، وعاد من هذه الرحلة الطويلة الى طرابلس بعد ان لقى رفيقاه حتفهما فى مناطق السودان .

وكذلك ادوارد فوغل (Eduard Vogel) الذى سرع عام ١٨٥٣ فى رحلته

الاستكشافية من طرابلس ، ومن المعروف انه قد قتل بعد ثلاث سنوات فى وداى .

ولقى موريتس فون بويرمان (Moritz von Beuermann) الذى بدأ رحلته سنة ١٨٦١ من بنغازى الى السودان المصير نفسه .

وقد انهى دوفيريه (Duvegrier) رحلته الدراسية النموذجيـة فـى الصحراء ومناطق الطوارق .

ان العقيد ميرشر (Mircher) وبولينياك (Polignac) وفاتون (Vatonne) وهوفمان (Hoffmann) واسماعيل بودربة قاموا سنة ١٨٦١ م برحلتهم الى غدامس من طرابلس . وانا شخصيا احدى رحلاتى – وهى صعودى الى قمة الاطلس الكبير والرحلة الـى توات – فى طرابلس وقد قمت ايضا برحلتى الى بحيرة تشاد ورحلتى عبر القارة الافريقية منطلقا من طرابلس الى برقة ومنها الى واحة سيوة حيث معبد الاله جوبتر امون .

ان الدكتور ناختيجال (Nachtigal) قد بدأ من طرابلس رحلته الى برنوح تلك الرحلة التى حملته الى منطقة تبستى التى لم تبحث بعد حيث تمكن من الوصول الى بوركو ووداى ، وفى هذه الفترة انطلقت معه من طرابلس الكسندريناتينـه (Alexandrina Tinne) التى حاولت ان تتوغل حتى السودان ولكنها دفعت حياتها ثمنا لهذه المحاولة .

وفى الوقت الذى اكتب فيه هذه السطور تمكن الدكتور فون بارى (Von Bary) من الوصول الى غات منطلقا من طرابلس وان هذا ليعتبر نجاحا اذا ماأخذ بعين الاعتبار انه لم يتمكن اى اوربى ان يطأ هذه المنطقة منذ دوفيريه ، وان ثلاثة رحالين من قبله كانوا قد دفعوا حياتهم ثمنا لمحاولاتهم .

ان السلسلة الكبيرة من الرحلات الناجحة التى انطلقت من طرابلس تبين اهمية هذه المدينة منطلقا للرحلات الكبيرة . ان اسماء هورنمان وليون وريتشيه ودنهام

ودودنى وكلابرتون ولينع وبيتشى ريتشاردسون وبارت ، راوفرفيج وفوجل ، فون بويرمان ودوفيريه وناختيجال والعبد الفقير، ان هذه الاسماء جميعها لايمكن ان تفصل عن طرابلس . واعتقد اننى بهذا قد بينت بما فيه الكفاية اهمية طرابلس باعتبارها تقطة انطلاق ، الا اننى اريد ان انوه الى ان هؤلاء الرحالين لم يعطوا الطرق التى تعبر هذه المناطق حقها ، واذا كان الطريق الرئيسى الذى يخترق فزان وبيلما وينطلق مباشرة الى داخل القارة الافريقية يبدو فى معظمه معروفا ، فان الطريق الممتد من غات جنوبا عبر عايير لم ثطرق سوى مرة واحدة . واما بالنسبة للطريق الممتد من جالو الى وادجنقا والى وداى عبر الكفرة فانه لم يبحث حتى الآن . وان فون بويرمان قد انطلق من مرزق باتجاه المشرق حتى وصل الى واو . وتكتسب منطقة الاحجار درجة كبيرة من الاهمية بسبب كونها جبلية ، وهذا بمجموعه يؤكد اهمية طرابلس مستقبلا نقطة انطلاق للرحلات الاستكشافية .

وبالاضافة الى هذا يجب ان نأخذ فى الحسبان ، ان احدى المشكلات الافريقية الكبرى لايمكن ان تحل الا عن طريق ليبيا – على الا قل ضمن الظروف الحالية – وكان هذا ما انتهى اليه الرحالة الخالد الذكر هاينريش بارت .

وعندما استشرت بارت فى برلين فى شتاء ١٨٦٤ حول رحلتى التى انوى القيام بها الى وسط افريقيا ، اعتبر من اهم الواجبات ان يتم التأكيد فيما اذا كانت هناك صلة بين مياه شارى ومياه بنوى وفى البداية كان يبدو هذا الراى متناقضا الا ان هذا الا حتمال لم يستبعد اذ انه خلال موسم الامطار لوحظ ان قسما من المطر يذهب الى بحيرة تشاد والقسم الآخر الى المحيط الأطلسى .

واننا نجد فى الولايات المتحدة الامريكية الظاهرة الغريبة ، وهى أن مياه بحيرة ميتشيفان تندفع عبر سلسلة من البحيرات الى الأطلسى ، وفى الوقت ذاته عبر نهرى الينوى والميسيسبى الى خليج المكسيك ولئن كان المنفذ الثانى قد وجد

اصطناعيا بسبب ارتفاع شيكاغو ، الا انه من المعلوم ان الطبيعة تستطيع ان تقوم بايجاد منافذ للماء فى اكثر من اتجاه ، سواء من سهل او من بحيرة او من هضبة . وتتوفر نماذج كثيرة على الارض من هذا النوع .

لقد ركزت حديثى حتى الآن على ليبيا من حيث انها منطلق للرحلات الاستكشافية الى وسط افريقيا ، وان عدد الذين اهتموا بهذه الولاية كثير ، وعلى الرغم من ذلك فان ليبيا الى جانب المغرب من المناطق التى لاتتوفر لدينا حولها معلومات كافية ويعود السبب فى ذلك الى ان الرحالين الذين كانوا يقصدون وسط افريقيا لم يعيروا ليبيا الا هتمام الكافى ، بل كانوا يهتمون بأن يصلوا بسرعة الى المناطق الجديدة تماما . ومن ناحية اخرى يمكن القول ان المختصين لم يتخذوا من ليبيا موضوعا لآبحاثهم . ومن الطبيعى ان يباشر هؤلاء مثل هذه الأبحاث فى بلد يجدون فيه مكانا امينا ومركزا يعتمدون عليه ولكن فى هذا المجال يجب ان يقع نوع من التمييز ، فالرحالة ينبغى عليه ان يذهب الى اى مكان وعليه ان يقدم معلومات دقيقة عن «طبوغرافية» المنطقة وعن ظروف المياه وكذلك عن الجيولوجيا والنباتات والحيوانات والشعوب . وانه ليس من المطلوب ان يضاف الى الرحالة مختصون .

وعندما يكون بلد ما معروفا فى نواحيه الأساسية يبرز عندئذ دور الاختصاصيين الذين يحتاجون الى مايرتكزون عليه ، اما ان يرسل هؤلاء الى بلد مثل ليبيا فان دورهم سينقلب ولاشك الى دور رحالة . ولكن عندما يوجد الى جانبهم انسان يقدم لهم المشورة ويساعدهم وينبههم الى ماهو جدير بالملاحظة فانهم يستطيعون ان يعملوا بنجاح ، ومثل هذا غير متوفر فى حالة ليبيا . وفى بعض الاوقات كان الرحالون يجدون دعما ممتازا من رجال مثل بوتا (Botta) ، هيرمان (Hermann) و وارنجتون (Warrington) وغيرهم وغالبا ماكان بوتا يمثل حالة استثنائية فى هذا المجال .

ومع ان بوتا كان من اكبر العلماء وقدم خدمات جلى فى ابحاثه عن الكتابة المسمارية واللوحات المكتشفة فى نينوى ، الا انه لم يعرف عن ليبيا الا مايمليه عليه باعتباره قنصلا ، ولم يعرف عن اواسط افريقيا الا مايعرفه اى انسان مثقف يعيش فى شمال افريقيا . وكان يشبهه فى هذا العقيد هيرمان والعقيد وارنجتون اللذان قدما للرحالين كل مساعدة ، ولو ان معرفتهما بالبلد وشعبه تعدّ ضحلة ، اذا ماقيست بمعرفة من يعيش مع شعب كأنه واحد منهم .

وفى هذا الوقت لايوجد فى طرابلس لابوتا ولا هيرمان ، ومايمكن ان يدرس حتى الآن فى طرابلس يتضح من المقطع التالى :

فيما يخص المجموعة الحيوانية نادرا مانجد بين الحيوانات الكبيرة شيئا جديدا، واما الحيوانات المفترسة فلم تعد موجودة على الاطلاق هذا اذا لم تحسب الضباع والثعالب منها ، واما الحيوانات الصغيرة فتوجد مجموعة هامة منها ، وان عمل عالم فى الحشرات لن يكون عديم الجدوى ، وسيجد عالم الحيوان فى منطقة برقة مجموعات من الحيوانات الصغيرة خاصة بالمنطقة وستكون دراستها مثمرة ولاشك كما ان الشاطئ غني بالاسفنج والمرجان ، ويتوفر السمك فى الوديان التى يدوم فيها توفر الماء .

اماّ من حيث النبات فلم يجر بحث عنه فى هذا البلد بعد ، وقد لاحظنـا مجموعة من الأزهار تغاير ما هو متوفر فى بلدان الشمال الافريقـى الأخرى ، فالجفارة تعتبر من اغنى مناطق الشمال الافريقى بالأزهار ، ويمكن مقارنة هذا السهل بمنطقة متيجة فى الجزائر من حيث شكل الأرض التى اتخذت بسبب وجود البحر فى شمالها والجبل من الشرق والجنوب ، شكل مثلث ، مان متيجة ايضا محاطة من ثلاث جهات بالبحر والجبل ، وان الجفارة تختـص بنباتـات أخرى لوقوعها ٥ درجات عرض جنوب متيجة وفضلا عن ذلك فان مساحة الجفارة تساوى عشرة امثال متيجة .

ان الجبال الواقعة جنوبى طرابلس ذات ازهار مغايرة لما نجده فى الجبال الساحلية للجزائر وتونس وذلك لأن ارتفاعها لايزيد عن ٢٥٠٠ قدما على حين تصل حبال الجزائر وتونس الى ارتفاعات كبيرة.

ان الأزهار التى تنبت فى اقليم طرابلس وفى الواحات غير معروفة تقريبا ولقد بذل دوفيريه جهودا مشكورة فى حصره للنباتات فى منطقة غدامس واما منطقة طرابلس – وبخاصة المنطقة الواقعة جنوبى سرت – فمازالت الأبحاث لم تمسها بعد ، وكذا الأمر فيما يخص منطقة برقة ، فموقع هذه المنطقة الشبيه بالجزيرة قد أدى الى اغناء الثروة النباتية فيها ، وهذا ما يقدم لعالم النبات فرصا طيبة . وللآن لم يتقرر اى من هذه النباتات الموجودة هناك هو شجرة السلفيوم الشهيرة فى التاريخ القديم . واذا ما اتضح من هذه المعطيات ان عالم النبات يستطيع ان يجد هناك عملا مثمرا لسنوات ، فان عمل الجيولوجى فى هذه المناطق لن يكون اقل اهمية ، خاصة وان الجيولوجى الوحيد اوفرفيج قد ركز اهتمامه على السودان وليس على ليبيا . ان جبال غريان – الجبال السوداء – الهروج التى رحل اليها هورنمان وفون بويرمان لم تدرس بعد جيولوجيا . وان رحلة ١٨٧٣/١٨٧٤ قد أثبتت ان مايجده الجيولوجى او عالم المستحاثات هو اجدى بكثير مما يحدة انسان غير مختص . ان المناطق ذات الأرض الصحرية كانت قد طرقت سابقا ، ولقد سبقت بعثتنا رحلات اخرى الى الواحات الداخلة والخارجة وسيوة وهناك اسماء متألقة قد ارتبطت باكتشاف الواحات ولكن صخورها لم تدر من الا من قبل زيتل (Zittel) . حقا لقد أتى الى برقة ، – أهم هضبة فى الشمال الافريقى – باحثون شهيرون الا انها لم تدرس جيولوجيا وكذلك الأمر فى منطقة طرابلس .

ان اقل المناطق دراسة من الناحية الطبوغرافية هى سرت ، ولئن درس شاطئها فان مناطقها الجنوبية مازالت مجهولة .

واما الدواخل فهناك بعض النقاط المحددة فلكيا ولكنها مازالت تتطلب تحديدا افضل ، فالمنطقة التى تلى طرابلس مازالت غير معروفة ، وفى جفارة توجد وديان عديدة ، الا ان مجاريها ليست صحيحة والمعلومات عنها قائمة اساسا على أقوال ابناء البلد ولانعرف فيما اذا كان بعضها يتلقى المياه على فترات ام انه يجرى بشكل دائم .

ان الجبال التى تقع مباشرة جنوبى اقليم طرابلس والتى تسمى فى بعضها دويرات ، وفى منطقة اخرى غريان ، لانعرف ارتفاعاتها كما ان أسماء القمم والوديان مازالت غير مسجلة . ان سوف جين اهم واد فى المنطقة لم يدرس بعد من بدايته حتى مصبه ونحن نعرف فقط انه موجود لأن غالبية الرحالين قد عبروه فى نقاط مختلفة خلال رحلاتهم .

ان معلوماتنا عن امتداد الجبال السوداء الواقعة جنوبى سوكنة كانت ضئيلة جدا وقد نتج عن رحلتى جنوبى مزدة بيانات اكثر دقة حولها وعلى درجة واحدة شرقيها وحيث الجبال السوداء التى يزيد ارتفاعها عن الجبال القائمة جنوبى سوكنة بحوالى ١٠٠٠ قدم ، واعتقد انه ليس من المستبعد ان تكون هذه المرتفعات اجزاء من كتلة جبلية كبيرة سواء سميت هذه الهروج السوداء او الجبال السوداء وانه لمن الواجب ان نتثبت من هذا عن طريق استطلاعه .

ان المنطقة الواسعة الواقعة جنوبى سرت باتجاه الدواخل بازالت مجهولة ، وفى برقة لم تدرس بعد سوى الشواطئ والطرف الشمالى الغربى للمرتفعات اما كيف واين تنتهى وتتدرج المرتفعات فى الشرق فهذا امر مازال فى محال التخمينات وعلى اساسها وضع فى الخرائط ، ولانعرف اذا كان هذا صحيحا طالما انه لم يصل الى هذه المنطقة احد بعد . وانه لعلى درجة من الأهمية ان نتأكد مما اذا كان حيز أوجلة ــ جالو وبير رسام ذا أرض رملية او صخرية ، واذا ماتبين انه رملى فانه لايمكن ان يروى هذا الجيز من المياه الجوفية .

وسيكون استطلاع هذه المنطقة من ليبيا مهما لدراسة جنس السكان حيث لم يكتب حتى الآن شئ فى هذا الموضوع وماتزال الآراء حول عدد السكان متضاربة واننى لا انوى تقدير عدد سكان مدينة طرابلس . اما اذا تجاوزنا موضوع المدن الى التسائل عن اصل القبائل فسنجد اننا لا نعرف عن هذا الموضوع شيئا . ولنقل ان البربر يسكنون فى الجبال ويتكلمون تمازغت وهم خمّس (٦) (اى انهم ليسوا سنة وانما يتعون مذهبا خامسا) وهذا كل مانعرفه عنهم . وان اوفر المعلومات لدينا هى مايتعلق بأصل سكان غدامس . وفى سهل جفارة ينقلب عدد من القبائل الى بدو ولا نعرف عما اذا كانوا من اصل بربرى ام عربى ، اذ ليس صحيحا مايقال من أن اليدو الذين يسكنون خياما من الصوف او الشعر هم من اصل عربى .

واذا كانت الظروف النباتية والجيولوجية والقبائل فى منطقة طرابلس لم تدرس بعد ، فان الظروف المناخية مازلت قائمة فقط على المعلومات التى يأتى بها الرحالين عن الفصل الذى يتواجدون خلاله فى المنطقة ، وكم فى هذه العلومات من الثغرات ؟

وقد اشار دوفه (Dove) الى مدى اهمية انشاء محطة ارصاد جوية فى طرابلس واذا كنا نعتبر مناطق الشمال الافريقى داخلة مناخيا فى الحيز الأوربى فاننا لن نتوصل الى دراسة النتائج الصادرة عن مثل هذه المحطة قبل ان نوجد محطات مماثلة فى جميع انحاء اوربا بحيث نعمل على نحو محطة الاشارات فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى جميع انحاء شاطئ الشمال الافريقى الواسع الانتشار لاتوجد محطات موثوق بها للأرصاد الجوية باستثناء الجزائر ، فلا نجد فى المنطقة الممتدة من عنابة حتى الاسكندرية مقياسا للحرارة – والمسافة بين هاتين المنطقتين فى اتجاه مستقيم تعادل المسافة بين مدريد وبرلين – ولئن وجد مقياس للحرارة فى بيت احد القناصل فقلما يستعمل . فاذا ماوضعنا فى الاعتبار مدى تأثير افريقيا – وعلى وجه الخوص ليبيا ذات الطابع الصحراوى – على مناخنا سهل علينا تفسير

الظروف المناخية وخاصة اذا ما اخذنا بنتائج الأرصاد الجوية للمحطات فى افريقيا . ومنذ سنوات اكد برونس (Bruns) على مدى اهمية انشاء محطة ارصاد جوية فى طرابلس .

ومن ثم فان دراسة الاثار وعلم التاريخ ستجد لها مجالا حافلا بالنتائج المثمرة . وفى طرابلس سيجد الباحث فى التاريخ القديم غنيمة غير منتظرة فى المدينتين الشهيرتين وهما صبراته فى الغرب ولبدة فى الشرق ، ويبعدان درجة واحدة عن طرابلس . انهما تقدمان كنوزا لاتقدر بثمن وهى اكبر بكثير مما يعتقد البعض فقد ترك الفينيقيون والاغريق والرومان آثارهم هناك . فأكبر قصر شيده القيصر سفيروس مازال يحتاج الى حفريات اذ تغطي الرمال هذه الآثار العظيمة وقد يكون لهذا الغطاء اثر فى حمايتها . ويبدو ان الامبراطور جوستنيان وجد المدينة والقصر على هذه الحالة ، فتشييد السور حول المدينة القديمة لم يكن ذا فائدة الا لفترة وجيزة فقط . وترقد مدينة لبدة الآن ومنذ ١٠٠٠ الف سنة تحت الرمال ، لايبرز الا بعض اعالي ابينتها من خلال الكثبان ، فنجد قبورا عالية وابنية المرفأ الفينيقى الضخمة ، كل هذا يقول للباحث ان هناك الكثير مما هو مخبأ .

ليست المدن الثلاثة القديمة (صبراتة ، أويا ولبدة) هى وحدها الجديرة بالدراسة بل فى الداخل آثار رومانية اقيمت جنبها لتشكل خطا دفاعيا لحماية المستعمرين والمدن من هجمات القبائل الليبية .

ان كهوف الجبل التى لم تدرس بعد ستقدم ولاشك معلومات هامة عن مرحلة ماقبل التاريخ وان كان بعضها يسكن حاليا من قبلا الأهالى . وليس هناك من بلدان العالم القديم ماهو اغنى من برقة بالآثار ، هذه المنطقة التى مازالت اقل مناطق ليبيا من حيث الدراسة ، فالى جانب آثار المدن القديمة توجد يوسبيدرس ، وتوكرة وطلميثة وسوسة ودرنة وشحات والمرج واطلال ضخمة وقبور وقلاع كلها

ذات امتداد وبهرج وقلما نجد مثل هذا فى مناطق العالم القديم . ولم تتم حتى الآن حفريات منظمة فى منطقة برقة ولكن على الرغم من ذلك فقد عثر على كنوز فنية رائعة .

واما بخصوص الكشف عن قطع فنية فقد اثبت هذا كل من دينس (Denys) وسميث وبورشر . وان التماثيل التى احضرها الأخيران الى لندن هى ابولوسيتوريدس وباخوس ، وحورية قورينة وهى تقيد اسدا وقد توجتها ليبيا . وهذه التماثيل الاستكشافية ، فالمدينة والولاية لاتزالان منذ هورنمان اى منذ نهاية القرن الماضى (الثامن عشر) الى فون بارى – اى الى أيامنا هذه – منطلقا للرحلات الاستكشافية الناجحة التى تقصد اواسط افريقيا ، وانه لمن الأهمية بمكان ان تؤسس فـــى طرابلس محطة للرحالين فليس هنالك افضل من شعور الرحالة بانه يوجد مـــن يعتمد عليه ويدافع عن مصالحه ، ويرعى شؤونه الى حد ما ، ويلبى طلباته ، ويرجع اليه فى الحالات الصعبـــة وهذا بالذات هو ما ادركه مؤتمر بروكسل واهم تعتبر من اجمل تماثيل العصر القديم . وان كل سائح يستطيع ان يقف على ثراء هذه الآثار ففى جميع هذه المناطق تقدم له نقود قديمة ومزهريات وهى جميعها اصلية .

واعتقد ان كلامى واضح وان ماقلته كاف (وليكن تلخيصة فى النقاط الثلاثة التالية) :

(١) ان طرابلس بل الولاية بأجمعها مهمة باعتبارهــا نقطــة انطلاق للرحلات ماتمخض عنه .

(٢) ان دراسة ليبيا منهجيا (جيولوجيا ، نباتيا ، سكانيا ، تاريخيا) سبب آخر يدعم فكرة انشاء هذه المحطة هناك .

(٣) اذا ماكان من المهم القضاء على تجارة العبيد فى طرابلس ، فمن الأولى

ان تقام المحطة فى هذه المدينة ويرى شفانيفورت فى كتابــه «قلب افريقيــا The Heart of Africa, II, 430 » انه مالم يكن هناك مشرف على هذه المحطة فانه من الصعب القضاء على تجارة العبيد ، وان هذا ينطبق على ليبيا اكثر مما ينطبق على سائر مناطق الشمال الافريقى ، لأنها لاترتبط بمواصلات مباشرة مع استانبول .

ولئن لقى هذا الاقتراح الموافقة فيبقى البحث عن المال لتأسيس هذه المحطة فى ليبيا . وانى لا اشك ابدا بصعوبة هذا الامر ، ولو ان المال اللازم قد يؤخذ من جمعية دولية او من اية حكومة .

تعريب واعداد . عماد الدين غانم

كلية التربية _ جامعة الفاتح

(١) ولد غيرها رد رولفس يوم ١٤ ابريل (نيسان) ١٨٣١ فى مدينة فيغزاك على مقربة من بريمن بالمانيا وكان ابوه طبيبا ، وكان ، وكان يعده لدراسة الطب كاخيه ولكنه تطوع فى الجيش وارتقى الى رتبة ملازم وبهذه الرتبة ترك الخدمة العسكرية بسبب حل جيش شليزويغ _ هولشتاين والتفت بعد ذلك الى دراسة الطب فى عدد من الجامعات الالمانية الا انه لم ينه دراسته . ورحل منذ عام ١٨٠٠ الى النمسا وسويسرا لينخرط فى الجيش ثانية _ على ما يبدو _ ثم استقر فى الفرقة الاجنبية الفرنسية فى الجزائر حيث رقى الى اعلى رتبة تمنح لغير الفرنسيين فى هذه الفرقة وهى رتبة رقيب (سرجنت) كما حصل على عدة اوسمة . وبعد ان قضى ستة اعوام فى هذه الفرقة ذهب الى طنجه املا ان ينضم الى الخدمة العسكرية هناك . فلما تعذر عليه ذلك نحا نحوا اخر فشرع يتأقلم مع البيئة الاسلامية ويتعلم اللغة العربية بشكل جيد _ اذ سبق له ان بدا تعلمها فى الجزائر _ ثم قام برحلته الاولى وقد اقتصرت هذه الرحلة على المغرب الاقصى . فذهب من طنجة الى مراكش ثم الى اغادير ومنها الى تافيلت وعندما وصلت مذكراته الى اوربا اثارت اهتماما وتلقى دعما من الجغرافى بيترمان . ومن الجمعية الملكية الجغرافية فى لندن ومن مجلس مدينة بريمن . وكان الهدف من هذا الدعم المادى ان يذهب الى تمبكتو . ومنذ ١٨٦١ م الى ١٨٨٥ م قام رولفس برحلات عديدة من اقصى غرب الشمال الافريقى الى اقصى الشرق ومن طرابلس حتى تمبكتو ومن بنغازى حتى برنوح ، وقام بابحاث شهيرة حول الكفرة ، وقد تعرض الى الليبيا فى كتبه الثلاثة عشر ونذكر فيما يلى اهمها بالنسبة الى ليبيا :

- من طرابلس الى الاسكندرية — Von Tripolis nach Alexandrien, Breman 1871
- ثلاثة اشهر فى الصحراء الليبية — Drei Monate in der Libyschen Wüste
- الكفرة — Kufra. Leipzig 1881
- رحلة رولفس فى شمال افريقيا — G. Rohlfs Reise durch Nord Afrika 1865-1867
- عبر افريقيا — Quer durch Afrika. Leipzig, 1894-1895

(٢) العنوان الاصلى للبحث : Gerard Rohlfs. Die Bedeutung Tripolitaniens an sich und als Ausgangs-punkt für Entdeckungsreisende. Weimar, Herman Böhlau 1877

(٣) Hans Rhotert. Die Erforschung der Wüste, in: Sahara, 1000 Jahre zwischen Weide und Wüste. Köln 1978. JP. 122, 127.

(٤) وردت باسم Tripolitanien في الأصل وقد آثرنا ترجمتها بكلمة ليبيا لأنه يقصد بها غالبا ليبيا باجمعها

(٥) **المنيعة حاليا**

(٦) ومن المعلوم ان الفرنسيين احتلوا الجزائر سنة ١٨٢٠ م وأن العثمانين أعادوا سيطرتهم على ليبيا سنة ١٨٢٥ م تقريبا بعد القضاى على حكم الاسرة القرة ما نيلة .